# منهج مرتاض عبد المالك في دراسة الأمثال الشعبية •

د.نصيرة شافع بلعيد

الألسنية البنيوية منهج يبحث في الخصائص اللغوية التي تنتظم اللغات وفقها وذلك من خلال اعتماد مجموعة من الوقائع اللغوية أي المدونات التي تم إنجازها مسبقا ، والبنيوية تشمل كل دراسة لسانية تنطلق من وصف النصوص المسبقة لتستخرج الهندسة اللغوية لها ولغيرها من النصوص التي تنتمي إلى هذه اللغة ، إذ تقف عند حدود النص ولا تتجاوزه إلى غيره من العوامل المساهمة في الإنجاز التواصلي[1] .

والفكرة الأساسية للبنيوية في اللسانيات هي أن اللغة بنية أي كيان واحد متكامل، يتكون من جزئيات في نظام محكم تحكمه عدة علاقات ، فالبنية هي مجموعة العلاقات القائمة بين عناصر النظام ، إذن فالبنيوية تقوم على أساس نظري مؤداه أن البنية تتألف من عناصر ومكونات جزئية ، وأن أي تغيير يطرأ على أي واحد من هذه المكونات ،لابد أن يؤثر في سائر المكونات و العناصر الأخرى ، وعلى هذا الأساس فالبنيوية مبدأ عام يصلح أن يتبنى في اللغة والاجتماع وغيرهما[2] ، ومن هذا المنطلق اتبع الدكتور عبد المالك مرتاض الألسنية البنيوية منهجا له لدراسة الأمثال الشعبية في كتابيه :

- الأمثال الشعبية الجزائرية

- في الأمثال الزراعية

لقد سمح له هذا المنهج باستخراج عناصر ثقافية وعلمية ذات شأن من نصوص الأمثال الشعبية الجزائرية ، فهو لم يعرض لتفسيرها تقليديا و لم يحاول التعلق بالبحث عن مقابلها في الفصحى أو في الأمثال الشعبية العربية الأخرى لأنه رأى أن هذا المنهج ساد زمنا طويلا وآن الأوان للتخلص منه والبحث عن بديل له .

من أجل ذلك حاول استخراج عناصر اجتماعية وزراعية واقتصادية وثقافية وفولكلورية من هذه الأمثال الشعبية ، كما رسم لأسلوبها منهجا علميا يسيطر عليه ويحيط به .

وقد فرض عليه هذا المنهج الذي تمثله لدى القيام بهذا العمل في كتابه:"الأمثال الشعبية الجزائرية " أن يقسم هذه الدراسة إلى أربعة أقسام كبرى : تناول في القسم الأول مضمون الأمثال الشعبية الجزائرية المتعلقة بالزراعة والاقتصاد والتدبير المنزلي في الغرب الجزائري . أما القسم الثاني فتناول فيه مسألة الحيّز

والزمان ، وعالج في القسم الثالث اللغة والأسلوب في هذه الأمثال بينما خصّص القسم الرابع للملحقات التقنية .

يتجلى المنهج البنيوي الألسني خاصة في القسم الثالث حيث نبه منذ البداية إلى أن مفهوم اللغة الذي يريده هنا ليس بمعنى الأداة المستخدمة في التوصيل وإنما يقصد مفهوما جديدا يشيع في الاستعمالات الغربية الحديثة بين الألسنيين المعاصرين هو الذي يؤديه لفظ (langage) ، واللغة بهذا المفهوم تتميز بشكلها النظامي أي بوصفها وسيلة من وسائل التعبير وبكونها نظاما كلاميا معقدا يستخدم آليا في التوصيل ، فكأن اللغة بهذا المعنى هي النظام المسيطر على لغة ما بنحوها وصرفها ، أي بسلوكها اللغوي على اختلاف الصياغة و الطرائق المستخدمة في التعبير المنطوق ، والألسنيون الغربيون يميزون تمييزا أساسيا بين لغة

بمعنى (langue) ، ولغة بمعنى (langage) وهي ما يمكن أن نطلق عليه " لغة الكلام المستخدم في عمل إبداعي ما "[3].

وقد توصل الدكتور عبد المالك مرتاض إلى أن لغة الأمثال الشعبية الجزائرية الزراعية والاقتصادية ذات اتصال وثيق بالفصحى ، فقد لاحظ أنها تحتفظ بنطق عربي سليم إلى حد بعيد : فالكاف كاف والقاف قاف ، ماعدا نطق الضاد طاء في أقصى الغرب الجزائري "الظهر: الطهر" ، وما عدا تسهيل الهمز طورا فتصبح " أخطأك : اخطاك " وقلبه عينا طورا ثانيا فإذا " القرآن : قرعان ".

وهذه الظواهر النطقية لا تنصب على جميع المناطق ولا تنطبق على كل الأميين الذين يروون هذه الأمثال ، فمنهم من خالط أهل العلم فتحسن نطقه وتخلص من العيوب النطقية الناشئة عن التوغل في البداوة .

كما لاحظ أنّ الظاهرة العامة التي يمكن أن تشمل لغة هذه الأمثال في معظمها ، هي أنها قيلت في بيئة زراعية قحّة ، بعيدة عن الاتصال بالبيئة العجمية (الأوروبية) ، مما يبرهن على أنها قيلت ، في معظمها قبل الاحتلال الفرنسي ، أو أنها لم تتأثر بهذا الاحتلال لغويا ، ولذلك نجد هذه الأمثال في كثير منها ذات لغة عالية لا ينقصها من الفصاحة إلا النطق وإقامة الإعراب . وقد وجد أن كل ذلك طبيعي لا غرابة فيه ، لأن الأمثال في مفهومها العام هي من مأثور الحكم ، والحكمة لا يمكن أن تلقى في ألفاظ سوقية ساقطة [4].

وقد وجد أنّ خمسون مثلا ومائة من الأمثال التي درسها تتألف من ألفاظ : إما فصيحة صراحة ، وإما هي ذات أصل عربي لا سبيل إلى المراء فيه كقولهم

" اللّي" المنحوتة من "الذي" و "البيان" الآتية من الأبواب ...

درس عبد المالك مرتاض أيضا أسلوبية الأمثال الشعبية ، والأسلوبية نتيجة لمفهومها الألسني غير الأسلوب ولكنها ابنته ، أي أنها علمه الذي تعرف به خصائصه ، وهو يرى أنها ولدت من أجل أن تخدمه بمنهج علمي .

والحقيقة أن الأسلوبية هي علم معرفة الأسلوب أي علم " بيداغوجية الحديث"، والحديث بهذا المفهوم ، أي ثقافيا وبيداغوجيا مفروض عليه أن يتشكل في نظام خاص ومعرفة أصول هذا النظام هو موضوع الأسلوبية ، فالأسلوبية إذن تعني دراسة علمية لأسلوب أعمال أدبية .

من هذا المنطلق عالج أسلوب الأمثال الشعبية الجزائرية على مستويين اثنين ، داخل إطار هذه الأسلوبية ، وهما : المستوى البنيوي ، والمستوى الصوتي [5].

1- على المستوى البنيوي : بما أنّ كل جنس أدبي لابد أن يكون له مضمون يتحدث عنه هو جوهره وروحه ، وشكل يمثل فيه الهوية الفنية ويعكس النظام الكلامي له ، فإن د.مرتاض توقف عند هذا النظام الذي ينتظم فيه أسلوب هذه الأمثال الشعبية لمعرفة أصوله العامة ، إذ بدون معرفة أصول هذا النظام لا يستطيع أن يعرف مفتاح السر لأسلوب هذا الجنس من الأدب الشعبي .

وقد توصل في دراسته إلى أنّ المبدع الشعبي يجد صعوبة في التعبير عن حاجته بأسلوب غير متوازن ولا موقّع ، بل كان يعمد إلى نظام من الكلام يقوم على الملائمة اللفظية المنسجمة، أي على الموازنة بين عدد الألفاظ في كل جملة يتألف منها المثل .

كما لاحظ أن عدد الجمل أو الوحدات الكلامية القصيرة ، المتوازية معا ، أكثر من الجمل الطويلة غير المتوازية من حيث عدد ألفاظها التي تشكلها .

و هذا لا يعني أي توازن ، إذ لم يعثر مثلا إلا على مثل واحد يتألف من جملتين (وحدتين): ليس في الجملة إلا لفظ واحد ، وقد نتعجب كيف تكون الجملة لفظا واحدا فقط، غير أنّ المرسل يتوقف على ما بين اللفظين المسجوعين ، مما يدل على أنه توهم أنّ المثل عبارة عن جملتين اثنتين ، لا جملة واحدة ، وهذا المثل هو : " الشركة هلكة ".

فهذا التوقف بين اللفظين ، والذي ينشأ عنه صوت موسيقي مؤلف من تردد حرفين متجانسين هما : " كة " هو الذي يجعلنا نذهب إلى ثنائية هذه الجملة أدبيا في هذا المثل الشعبي .

وبفضل الأعمال الحصرية التي قام بها ، والتي أتاحت له مسح أحوال الجمل التي تتألف منها هذه المجموعة من الأمثال الشعبية ، فإنه قد توصل إلى نتائج علمية خولت له الوقوع على مفتاح السر في نظام أسلوب هذه الأمثال .

لقد توصل إلى أنّ هذه الأمثال أسلوبيا إما أن تكون مركبة من جملة واحدة ، وتكون في العادة بحكم قوة الأشياء مرسلة أي خالية من الإيقاع والسجع لأن السجع يفترض وجود وقفتين من جنس صوت واحد يتكرر مرتين أو أكثر ، وإما أن تكون مركبة من جملتين اثنتين مسجوعتين أو مرسلتين ، وإما أن تكون مركبة من ثلاث جمل أو أربع ، إذ أنه لم يعثر على أي مثل مؤلفا من أكثر من أربع جمل ، لأن طبيعة المثل التي تقتضي الإيجاز الذي يتيح له السيرورة و الانتشار والذيوع ترفض ذلك رفضا قاطعا .

وبعد تأمل وملاحظة بدا له أن الأمثال الشعبية تقوم جملها ، باعتبار طبيعتها الروائية التي تستدعي الحفظ والنقل الشفوي ، على شيء من التوازي والتوازن معا ، حيث كلما تلاءمت جملتان في نص مثل وتوازت ألفاظهما واتخذت ضربا من التوازن والتقارب في عدد هذه الألفاظ كلما يتيسر حفظهما و نقلهما بسهولة فقولهم : " الشركة هلكة "

حتما أيسر نقلا وأسهل رواية وأكثر قابلية للانتشار من قولهم مثلا : " أنا نجري له باللقمة لفمه ، وهو يجري لي بالعود لوجهي "

على الرغم من أن المثل الأخير متساوي عدد الألفاظ في الجملتين المركب منهما ، إلا أنّ كثرة هذه الألفاظ (5+5) من جهة وخلو الجملتين من الإيقاع والسجع من جهة أخرى جعلا هذا المثل عسير الرواية والنقل نسبيا .

فكأنهم يتحاشون الأمثال الشعبية التي تقوم على كثرة الألفاظ في جملتين متقابلتين ، من أجل ذلك لم يعثر إلا على مثل واحد مركب من : (5+5) .

2- على المستوى الصوتي : إنّ جمال الأسلوب في اللغة العربية يقوم أساسا على الإيقاع الصوتي ، والأدب العربي الشعبي يشبه الأدب العربي الفصيح ولاسيما القديم منه في كثير من خصائصه لأنه يقوم على الرواية كما كان أدبنا العربي القديم يقوم عليها ، ويشيع في مجتمع تغلب عليه الأمية والبداوة في معظم الأحوال ، كما أنه يجسد المطامح الساذجة لطبقة شعبية معينة ، لا لشعب ينتظمه حبل واحد .

من أجل ذلك فإن الأدب الشعبي الذي فرضت عليه الرواية ، كتب عليه أن يخضع لكثير من الخصائص الصوتية التي تيسر روايته وتجعله سائرا ذائعا بدون عسر. وبدون تسخير المادة الصوتية في هذه الرواية ودسّها للمتلقين كان يمكن أن تكون صعوبة كبيرة أمام الذاكرة في حمل هذه النصوص القصيرة وذكرها [6]. من هنا توصل الدكتور عبد المالك مرتاض إلى أنّ معظم الأمثال الشعبية الجزائرية والتي تنتمي إلى التراث العربي العام ، اعتمدت الإيقاع الصوتي الذي كان علماء البلاغة العرب يطلقون عليه " السجع "[7].

كما استنتج أنّ المبدع الشعبي يحرص في إرسال هذه الأمثال على لونين من الموسيقى الإيقاعية : فالأولى داخلية ، وهي تتمثل في الملائمة بين ألفاظ مختلة بجعلها تتراص في نظام

كلامي متشابه أو متجانس . والثانية خارجية وهي اختيار لفظين أخيرين لجعل الوحدتين المتقابلتين المتتابعتين تنتهيان بصوت واحد يتكرر مرتين ، قد يكون مركبا من حرف واحد وهذا نادر . وقد يكون مركبا من حرفين اثنين أو أكثر وهو المتواتر في أسلوب هذه الأمثال .

عندما نقرأ المثل التالي : " اخدم يا صغري لكبري ، واخدم يا كبري لقبري "

يتبين لنا أنّ الفنان الشعبي قصد التأثير في النفس بواسطة نظام صوتي عجيب حيث يجوز أن نتغنى بالوحدة الثانية من المثل وحدها وبالوحدة الأولى وحدها دون أن يختلف الأداء أو يتكسر اللحن الشعري ، وهذا الإيقاع الصوتي لا يتصل بنهاية كل وحدة فحسب ،بل ينصب على سائر عناصر الوحدة الأخرى .

فالألفاظ الستة لهذا المثل تحمل نفس الخصائص الصوتية لأن ألفاظ المثل ستة ولكن القوالب الصوتية ثلاثة ، ولو استخدمنا نظام الميزان الصرفي المعروف في وزن الشعر العربي ، لوجدنا ثلاثة قوالب فقط هي : "افعل يا فعلي لفعلي"[8].

وبالإضافة إلى القالب الصوتي العام ، فإنّ الصوت ينصب على المجانسة الصوتية المطلقة طورا ، والنسبية طورا آخر، وقد لاحظ الدكتور عبد المالك أنّ نسبة التكرار الصوتي في هذا المثل الشعبي ترقى إلى 82 في المائة ، وهذه النسبة كاسحة ساحقة مما جعل أسلوب هذا المثل يرقى إلى مستوى صوتي قد يقارب الشعر نفسه في مفهومه التقليدي .

**الهوامش :**

● **د. شافع بلعيد نصيرة – قسم اللغة و الأدب العربي – كلية الآداب و اللغات – تلمسان**

1- جلال شمس الدين ، موسوعة مرجعية لمصطلحات علم اللغة النفسي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، 2003 ، ص 260 .

2- سمير شريف استيتية ، اللسانيات ( المجال والوظيفة والمنهج ) ، عالم الكتب الحديث ، 2005 ، ص 161 .

3- عبد المالك مرتاض ، الأمثال الشعبية الجزائرية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982 ، ص 96.

4- المرجع نفسه ص 97 .

5- نفسه ص120 .

6- عبد المالك مرتاض ، في الأمثال الزراعية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1987 ، ص 141.

7- عبد المالك مرتاض ، الأمثال الشعبية الجزائرية ، ص139 .

8- المرجع نفسه ص 141 .

**المراجع :**

1- جلال شمس الدين ، موسوعة مرجعية لمصطلحات علم اللغة النفسي مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، 2003

2-سمير شريف استيتية ، اللسانيات ( المجال والوظيفة والمنهج ) ، عالم الكتب الحديث ، 2005

3- فدوى مالطي – دوجلاس ، بناء النص التراثي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، د.ت .

* عبد المالك مرتاض :

4- الألغاز الشعبية الجزائرية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، .1980

5- الأمثال الشعبية الجزائرية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982.
6- في الأمثال الزراعية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1987 .